

الخطب الدينية

٣

﴿ خطبة من خطب القاسمي في النهي عن الحلف بالله والطلاق ﴾

الحمد لله الذي خلق الخلق على الاطلاق . فاطر السموات والارض وباسط الارزاق . فسبحانه هو العلي الرزاق . لا تنفذ خزائنه بكثرة الانفاق . أحده واشكره . وآتوب اليه وأستغفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الخلاق ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد العالمين بالاتفاق . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة وسلاما دائما الى يوم التلاق . وسلم تسليما . أما بعد أيها الناس عليكم بالتقوى فانها ترضي الملك الخلاق . واحذروا من ان يجعلوا الله عرضة لايمانكم . فان ايمان الحنث تمحق بركة الارزاق ، واحذروا من الحلف بالطلاق . فانه يمين الفساق ، فمن حلف بغير الله فقد عظمه ، ومن عظم غير الله صار من أهل النفاق ، وخالف الكتاب والسنة ومن خالفهما فليس له في الآخرة من خلاق . فمن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « ألا ان الله ينهاكم ان تحلفوا بأبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تحلفوا الا بالله ولا تحلفوا الا وأتم صادقون » . وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقال صلى الله عليه وسلم « اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وآت الذي هو خير » واعلموا ان من حنث في يمينه فعليه أداء الكفارة وهي عتق رقبة أو اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، فان عجز فصوم ثلاثة أيام ، ولا يجب التتابع في الصيام ، ويكفي في الكسوة ثوب أو سراويل أو قميص ، يوزع من كل عشرة على المساكين الذين ورد فيهم التنصيص ، ومن طلق زوجته ثلاث تطليقات شرعيات غير بدعيات فلا تحمل له الا بنكاح جديد ، ومن أمسكها بعد الثلاث فقد خالف أمر الله المجيد ، وتعرض للوعيد الشديد ، ومن لعب

بالطلاق ، أو طلق امرأته من غير ما باس فقد تقضى الميثاق ، فقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال اتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم ، وقال صلى الله عليه وسلم « ابغض الخلال الى الله الطلاق » وقال صلى الله عليه وسلم « ايما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما باس فغرام عليها رأثمة الجنة » وقال تعالى (الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح باحسان) وقال تعالى (فان أطمنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) أي بالفراق ، فاتقوا الله عباد الله في النساء وحقوق الزوجية ، وقوموا من مكارم الاخلاق مع الاهل بالسنة النبوية ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لاهله وانا خيركم لأهلي » واشكروا نعمة الله في الازواج أيها المؤمنون ، فقد قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

﴿ خطبة أخرى له في آداب الكسب والمعاش ﴾

الحمد لله الذي رفع السماء لعباده سقفاً مبنياً ومهد الارض بساطاً لهم وفراشاً . وكور الليل على النهار فجعل الليل لباساً وجعل النهار معاشاً . لينتشروا في ابتغاء فضله وينتفشوا به عن ضراعة الحاجات اتمعاشاً . وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بمد وردد هم عليه عطاشاً . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا (؟) في نصرة دينه تشمراً وانكماشاً . أما بعد فياعباد الله اتقوا الله . واعلموا ان رب الارباب ، ومسبب الاسباب ، جعل الآخرة دار الثواب والعقاب . والدنيا دار التمحل والاضطراب . والتشمير والاكنتساب . وليس التشمير في الدنيا مقصورا على المعاد دون المعاش . بل المعاش ذريعة الى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، ومدرجة اليها ، والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من المالكين ، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين . والاقرب الى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين . ولن ينال رتبة الاقتصاد ، من لم يلزم في طاب المعيشة

منهج السداد ، ولم ينتهض من طلب الدنيا وسيلة الى الآخرة وذريعة ، ما لم يتأدب في طلبها بأداب الشريعة ، وقد ورد في فضل الكسب والحث عليه آيات وأخبار ، قال الله تعالى (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم) وقال تعالى (فاتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) وقال صلى الله عليه وسلم ، « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، ومن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، ومن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان » وقال عمر رضي الله عنه لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ويجب على التاجر أن ينصح في المعاملة ، ويجب لأخيه ما يجب لنفسه ، ولا يحل له ان يثني على السامة بما ليس فيها ، ولا يكتف من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً ، ولا يكتف في وزنها ومقدارها شيئاً . ومن خالف ذلك كان ظالماً غاشماً ، والغش حرام قال صلى الله عليه وسلم « من غشنا فليس منا » وقال تعالى (ويل للمطففين الذين اذا اكلوا من ثمنه على الناس يستوفون * واذا كالوهم أو وزنوهم ينحسرون) وقال تعالى (وأوفوا الكيل اذا كتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً) وعلى التاجر الرفق في التعامل والاحسان فيه ، قال صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء » وقال صلى الله عليه وسلم « من انظر معسراً أو ترك له اظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله » وقال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين)

﴿ خطبة له في فضل الاخوة والصحبة والالفة ﴾

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بطائفة التخصيص طويلاً وامتناناً ، والف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخواناً ، ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخذاناً ، وفي الآخرة رفقاء وخلاناً ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المصطفى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واتخذوا به قولاً وفعلًا وعدلاً واحساناً . أما بعد فيا عباد الله اتقوا الله

واعلموا أن التحاب في الله تعالى والاخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات، وقد ورد في فضل الاخوة آيات كريمات وأخبار عاليات. قال الله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن آلف مألوف ولا خير في من لا يآلف ولا يؤلف » وعنه صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ان نسي ذكره ، وان ذكر أعانه » وعنه صلى الله عليه وسلم « ما زار رجل رجلا في الله شوقا اليه ورغبة في لقائه الا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة » واعلم أن لاختيك عليك في اخوته وصحبته حقوقا يجب الوفاء بها . فمنها حق في المال بأن تقوم بمحااجة من فضل مالك ، أو تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك ، وهذه رتبة الصديقين ، وحق في الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات مع البشاشة واظهار الفرح ، وحق على اللسان في السكوت عن عيوبه وفي ترك مماراته ، وفي النطق بالمحاب توددا اليه وتقديرا لاحواله ، وحق في العفو عن الزلات والهفوات ، وحق في الدعاء له في حياته ومماته كما يدعو لنفسه ، وحق في الوفاء والاخلاص ، وذلك بالثبات على الحب وادامته الى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، وحق في التخفيف وترك التكليف والتكليف ، فلا يكلف أخاه ما يشق عليه ، بل يروح سره من مهماته وحاجاته ، وجملة حقوق المسلم أن تسلم عليه اذا لقيته ، ونجيبه اذا دعاك ، وتشمته اذا عطس ، وتعوده اذا مرض ، وتشهد جنازة اذا مات ، وتبرقسه اذا أقسم عليك ، وتنصح له اذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنك ، ونحب له ما نحب لنفسك. وقال صلى الله عليه وسلم « لا تمحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا كما أمركم الله » فاتركوا الضغائن من قلوبكم والاحقاد ، وتصالحوا على المحبة وسلامة الصدر والايثار وصدق الوداد ، وليعتذر كل منكم لاختيه عما فرط منه ، ليفوز برضاء الله عنه. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الدين التودد الى الناس واصطناع المعروف الى كل بر وفاجر » وقال صلوات الله عليه لما ذ « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الامانة وترك الخيانة، وحفظ الجار ورحمة اليتيم، ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح »

المعرفة بالله تعالى

بين ابن القيم في باب المعرفة من الجزء الثالث من (مدارج السالكين) الفرق بين المعرفة والعلم لغة وشرها من خمسة وجوه ، ثم بين معناها في اصطلاح الصوفية وكلام أئمتهم فيها ، ثم شرح ما قاله شيخ الاسلام ابو اسماعيل الهروي فيها ، ونحن ننقل ما هو خاص بالتصوف ، أي ما بعد الفروق الخمسة وهذا نصه :

والفرق بين العلم والمعرفة عند أهل هذا الشأن ان المعرفة عندهم هو العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة الا من كان عالما بالله وبالطريق الموصل اليه وبآفاتها وقواطعها ، وله حال مع الله ، فتشهد له بالمعرفة ، فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله في معاملته ، ثم أخلص له في قصوده ونياته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تظهر من أوساخه وأدرانته ومخالفاته ، ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته ، ثم دعا اليه على بصيرة بدينه وآياته ، ثم جرد الدعوة اليه وحده بما جاء به رسوله ، ولم يشبها بأراء الرجال وأذواقهم ، ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم ، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته . فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة ، اذا سمي به غيره على الدعوى والاستعارة^(١)

وقد تكلموا على المعرفة بآثارها وشواهدھا فقال بعضهم : من امارات المعرفة بالله حصول الهيبة منه ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيئته — وقال أيضا — المعرفة توجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته . وقال لي بعض أصحابنا : ما علامة المعرفة التي يشيرون اليها ؟ فقلت له : أنس القلب بالله . قال لي : علامتها ان يحسن بقرب قلبه من الله فيجده قريبا منه . وقال الشبلي : ليس لعارف علاقة^(٢) ولا لمحب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، ولا لخائف قرار ، ولا لاحد من الله فرار . وهذا كلام جيد ، فان المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها ، وتعلقه

(١) في ب « فاذا سمي به غيره فعلى الدعوى والاستعارة » (٢) في ب

بمعروفه فلا يبقى فيه علاقة بغيره ، ولا تمر به الملائق الا وهي مجتازة ، لا تمر مرور
استيطان . وقال أحمد بن عاصم : من كان بالله أعرف ، كان له أخوف . ويدل على
هذا قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) وقول النبي صلى الله عليه وسلم
« أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية » وقال آخر : من عرف الله تعالى ضاقت عليه
الدنيا بسعتها . وقال غيره : من عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق . ولا تنافي
بين هذين الأمرين ، فانه يضيق عليه كل مكان لا يساعد فيه على شأنه ومطلوبه ،
ويتسع عليه ما ضاق على غيره ، لانه ليس فيه ولا هو مساكن له بقلبه ، فقلبه غير
محبوس فيه ، والاول في بداية المعرفة ، والثاني في نهايتها التي يصل اليها العبد .
وقال آخر : من عرف الله تعالى صفا له العيش فطابت له الحياة وهابه كل شيء
وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله . وقال غيره : من عرف الله قرت عينه بالله
وقرت به كل عين ، ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات ، ومن عرف
الله لم يبق له رغبة في سواه ، ومن ادعى معرفة الله وهو راغب في غيره كذبت
رغبته معرفته ، ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به وخافه ورجاه ، وتوكل عليه
وأتاب اليه ولهج بذكره ، واشتاق الى لقائه واستحيا منه ، وأجله وعظمه على قدر
معرفته به ، وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة اذا نظر فيها رأى فيها الغيب الذي
دعي الى الايمان به ، فعلى قدر جلاء تلك المرآة يتراءى له فيها الله سبحانه والدار
الآخرة والجنة والنار والملائكة والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما قيل :

اذا سكن الغديرُ على صفاء وجُنِبَ أن يحركه النسيم

بَدَتْ فيهِ السماءُ بلا امتراء كذاكَ الشمسُ تبدو والنجوم

كذاكَ قلوبُ أربابِ التجلي يرى في صفوها اللهُ العظيم

وهذه رؤية المثل^(١) الأعلى كما تقدم ، ومن علامات المعرفة أن يبدو لك
الشاهد ، وتفنى الشواهد ، وتنحل الملائق ، وتنقطع العوائق ، ويجلس بين يدي
الرب تعالى وتقوم وتضطجع على التأهب للقائه ، كما يجلس الذي شد أحماله وأزعم

(١) في ن « المثل »

السفر على التأهب له ويقوم على ذلك ويضطجع عليه ، كما ينزل المسافر في المنزل فهو قائم وجالس ومضطجع على التأهب ، وقيل للجنيدي : ان أقواما يدعون المعرفة يقولون أنهم يصلون بترك الحركات من باب البر والتقوى . فقال الجنيدي : هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الاعمال ، وهو عندي عظيم ؛ والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، ان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله والى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أتقص من أعمال البر ذرة الا أن يحال بيني وبينها ومن علامات العارف انه لا يطالب ولا يخاصم ولا يعاتب ولا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له على أحد حقا ، ومن علاماته انه لا يأسف على فائت ولا يفرح بآت ، لانه ينظر الى الاشياء بين الفناء والزوال ، لانها في الحقيقة كالظلال وانخيال . وقال الجنيدي : لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالارض بطأها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالطر يستقي ما يجب وما لا يجب وقال يحيى ابن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيتين : بكاء على نفسه ، وثناؤ على ربه . وهذا من أحسن الكلام فانه يدل على معرفته بنفسه وعبوبه وآفاته ، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله ، فهو شديد الازراء على نفسه ، لهج بالثناء على ربه . وقال أبو يزيد : انما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ماله . يريد تضييع حظوظهم والوقوف مع حقوق الله سبحانه وتعالى فتغنيهم حقوقه عن حظوظهم

وقال آخر : لا يكون العارف عارفا حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين . وهذا يحتاج الى شرح ، فان ما هو دون ذلك يشغل القلب لكن يكون اشتغاله بغير الله ، فذلك اشتغال به سبحانه لانه اذا اشتغل بغيره لاجله لم يشغل عنه ، قال ابن عطاء المعرفة على ثلاثة أركان : الهية والحياة والانس . وقيل لذي النون : بم عرفت الله ربك ؟ قال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي . وقيل لعبد الله ابن المبارك : بماذا نعرف ربنا ؟ قال بانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . فاني عبد الله باصل المعرفة التي لا يصح لأحد معرفة ولا إقرار بالله سبحانه الا به ، وهو المباشرة والعلو على العرش

ومن علامات العارف أن يعتزل الخلق بينه وبين الله حتى كأنهم أموات لا يملكون له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً ، ويعتزل نفسه بينه وبين الخلق حتى يكون بينهم بلا نفس ، وهذا معنى قول من قال : العارف يقطع الطريق بخطوتين : خطوة عن نفسه وخطوة عن الخلق ؛ وقيل : العارف ابن وقته . وهذا من أحسن الكلام وأخصره ، فهو مشغول بوظيفة وقته عما مضى وصار في العدم وعما لم يدخل بعد في الوجود ، فهمه عمارة وقته الذي هو مادة حياته الياقية . ومن علاماته أنه مستأنس بربه مستوحش ممن يقطعه عنه ، ولهذا قيل : العارف من أنس بالله فأوحشه من الخلق وافتقر إلى الله فأغناه عنهم ، وذل لله فأعزه فيهم ، وتواضع لله فرفعه بينهم ، واستغنى بالله فأحوجهم إليه . وقيل : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول . يعني أن العالم علمه أوسع من حاله وصفته ، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره ، وقال أبو سليمان الداراني : إن الله تعالى يفتح للعارف على فراشه ما لم يفتح له وهو قائم يصلي . وقال غيره : العارف تنطق المعرفة على قلبه وحاله وهو ساكت . وقال ذو النون : لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله

وقال بعضهم : رياء العارفين أفضل من إخلاص المرئيين . وهذا كلام ظاهره منكر جداً يحتاج إلى شرح ، فالعارف لا يراي الخلق طلباً للمنزلة في قلبه ، وإنما يكون ريأؤه نصيحة وإرشاداً وتعليماً ليقتردي به ، فهو يدعو إلى الله بعلمه كما يدعو إليه بقوله ، فهو ينتفع بعمله وينفع به غيره ؛ وإخلاص المرئد مقصور على نفسه ، فالعارف جمع بين الإخلاص والدعوة إلى الله ، فأخلاصه في قلبه ، وهو يظهر عمله وحاله ليقتردي به ، والعارف ينفع بسكوته والعالم إنما ينفع بكلامه * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق *

وقال ذو النون : الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين . وسئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء لون إنائه . وهذه كلمة رمز بها إلى حقيقة العبودية ، وهو أن يتلون بتلون أقسام العبودية ، فبينا تراه مصلياً إذ رأته ذاكراً أو قارئاً أو معلماً أو متعلماً أو مجاهداً أو حاجباً أو مساعداً للضعيف أو مغنياً للملحوف ، فيضرب في كل غنينة من

الغنم بسهم ، فهو مع المتسبين متسبب ، ومع المتعلمين متعلم ، ومع الغزاة غاز ، ومع المصلين مصل ، ومع المتصدقين متصدق ؛ فهو ينتقل في منازل العبودية من عبودية الى عبودية . وهو مقيم على معبود واحد لا ينتقل عنه الى غيره

وقال يحيى بن معاذ : العارف كأن بائن . وهذا يفسر على وجوه (منها) انه كأن مع الخلق بظاهره بائن عنهم بسره وقلبه و (منها) انه كأن بر به بائن عن نفسه و (منها) انه كأن مع أبناء الآخرة بائن عن أبناء الدنيا و (منها) انه كأن مع الله بموافقته بائن عن الناس في مخالفته و (منها) انه داخل في الاشياء خارج منها ، فان من الناس من هو داخل فيها لا يقدر على الخروج منها ، ومنهم من هو خارج عنها لا يقدر على الدخول فيها ، والعارف داخل فيها خارج منها . ولعل هذا أحسن الوجوه

وقال ذو النون : « علامة العارف ثلاثة : لا يطفى نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله » وهذا من أحسن الكلام الذي قيل في المعرفة وهو محتاج الى شرح ، فان كثيراً من الناس يرى أن التورع عن الاشياء من قلة المعرفة ، فان المعرفة متسعة الاكفاف واسعة الارجاب ، فالعارف واسع موسع ، والسعة تطفى نور الورع ، فالعارف لا تنقص معرفته ورعه ، ولا يخالف ورعه معرفته . كما قال بعضهم (١) العارف لا ينكر منكراً ، لا استبصاره بسر الله في القدر ، فعنده ان مشاهدة القدر والحقيقة الكونية هو غاية المعرفة ، واذا شاهد الحقيقة عذر الخليفة ، لأنهم مأسورون في قبضة القدر . فمن يعذر أصحاب الكبائر والجرائم ، بل أرباب الكفر فهو أبعد خلق الله عن الورع ، بل ظلام معرفته قد أطفأ نور ايمانه

قوله : (٢) باطن العلم الذي ينقضه ظاهر الحكم — فانه يشير به الى ما عليه المتحرفون ممن ينسب الى السلوك ، فانهم يقع لهم أذواق ومواجيد وواردات تخالف الحكم الشرعي ، وتكون تلك معلومة لهم لا يمكنهم جحدها فيمتقدونها ويتركون

(١) كتب في هامش الاصل « قوله بعضهم أي الملاحدة القائلين بوحدة

الوجود أعادنا الله من الزيغ والضللال » (٢) أي ذو النون

ظاهر الحكم ، وهذا كثير جدا ، وهو الذي فناء أئمة الطريق على هؤلاء ، وصاحوا بهم من كل ناحية ، وبدعواهم وذللوهم به ، قوله ^(١) « ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك محارم الله » كثرة النعم تطفي العبد وتحمله دلي أن يصرفها في وجوهها وغير وجوهها ، وهي تدعو الى أن يتناول العبد بها ما حل وما لا يحل ، وأكثر المنعم عليهم لا يقتصرون في صرف النعمة دلي القدر الحلال بل يتعداه ^(٢) الى غيره وتوسل له نفسه ان معرفته بالله ترد عليه ما انتهت منه أيدي الشهوات والمخالفات ، ويقول : العارف لا تضره الذنوب كما تضر الجاهل . وربما يسول له أن ذنوبه خير من طاعات الجاهل ، وهذا من أعظم المكر . والامر بضد ذلك ، فيستحيل من الجاهل ما لا يحتمل من العارف ، وإذا عوقب الجاهل ضعفا عوقب العارف ضعفين ، وقد دل على هذا شرع الله وقدره ، ولهذا كانت عقوبة الحر في الحدود مثلي عقوبة العبد ، وقال تعالى في نساء النبي صلى الله عليه وسلم (يأنساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) فإذا كملت النعمة على العبد فقابلها بالاساءة والعصيان كانت عقوبته أعظم فدرجته أعلى وعقوبته أشد

وقال أيضا ^(١) ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة فكيف عند أبناء الدنيا ؟ يريد انه ليس من المعرفة وصف المعرفة لغير أهلها سواء كانوا عباداً أو من أبناء الدنيا وقال أبو سعيد : المعرفة تأتي من عين الوجود ^(٢) وبذل المجهود . وهذا كلام حسن يشير الى أن المعرفة ثمرة بذل المجهود في الاعمال ، وتحقيق الوجود في الأحوال ، فهي ثمرة عمل الجوارح ، وحال القلب لا ينال بمجرد العلم والبحث ، فمن ليس له عمل ولا حال فلا معرفة له ، وسئل ذوالنون عن العارف فقال : كان هاهنا فذهب . فسئل الجنيد عما أراد بكلامه هذا فقال : لا يحصره حال عن حال ، ولا يحجبه منزل عن التنقل في المنازل ، فهو مع كل أهل منزل يمثل الذي هم فيه ، يجد مثل الذي يجدون ، وينطق بما لها لينفعوا ، وقال محمد بن الفضل : المعرفة حياة القلب مع الله . وسئل أبو سعيد : هل يصل العارف الى حال يجفو عليه البكاء ؟ فقال : نعم ! أما البكاء

(١) مقتضى ما قبله ان يقول : يتعدونه — أو : يتعداه أحدهم الخ اي ذوالنون

(٢) كتب في هامش الاصل « لعله الجود »

في أوقات سيرهم الى الله فاذا نزلوا بمحاثق القرب وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك ، وقال امض السلف : نوم العارف يقظة ، وأنفاسه تسبيح ، ونوم العارف أفضل من صلاة الغافل . أما كان نوم العارف يقظة لان قلبه حي فعيناه تمانان وروحه ساجدة تحت العرش بين يدي ربها وقاطرها ، جسده في القرش ، وقلبه حول العرش ، وأما كان نومه أفضل من صلاة الغافل لأن بدن الغافل واقف في الصلاة وقلبه يسبح في حشوش الدنيا والاماني ، ولذلك كانت يقظته نوم لان قلبه موات ، وقيل : مجالسة العارف تدعوك من ست الى ست : من الشك الى اليقين ، ومن الرياء الى الاخلاص ، ومن الغفلة الى الذكر ، ومن الرغبة في الدنيا الى الرغبة في الآخرة ، ومن الكبر الى التواضع ، ومن سوء الطوية الى النصيحة

فصل

قال صاحب المنازل ﴿ المعرفة على ثلاث درجات ، وانخلق فيها على ثلاث فرق : الدرجة الأولى معرفة الصفات والنموت ، وقد وردت أساميتها بالرسالة ، وظهرت شواهدا في الصنعة ، بتبصر^(١) النور القائم في السر ، وطيب حياة العقل لزرع الفكر ، وحياة القلب بحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار ، وهي معرفة العامة التي لاتعقد شرائط اليقين الا بها ، وهي على ثلاثة أركان : اثبات الصفات باسمها من غير تشبيه ، ونفي التشبيه عنها من غير تمطيل ، والاياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها ﴾

قلت : الفرق بين الصفة والنعت من وجوه ثلاثة (أحدها) ان النعت يكون بالأفعال التي تتجدد كقوله تعالى (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يفتي الليل النهار — وقوله — الذي جعل لكم الارض مهديا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذي نزل من السماء ماء بقدرنا أنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم

(١) في المتن « بتبصير »

من الفلك والانعام ماتركبون) ونظائر ذلك . والصفة هي الأمور الثابتة اللازمة للذات كقوله تعالى (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) ونظائر ذلك

(الفرق الثاني) ان الصفات الذاتية لا يطلق عليها اسم النعوت كالوجه واليد والقدم والاصابع وتسمى صفات ، وقد أطلق عليها السلف هذا الاسم، وكذلك متكلمو أهل الاثبات سموها صفات ، وأنكر بعضهم هذه التسمية كابي الوفاء ابن عقيل وغيره ، وقال: لا ينبغي أن يقال نصوص الصفات . بل: آيات الاضافات ، لان الحي لا يوصف بيده ولا بوجهه ، فان ذلك هو الموصوف ، فكيف تسمى صفة ؟ وأيضا فالصفة معنى يعم الموصوف فلا يكون الوجه واليد صفة . والتحقيق ان هذا نزاع لفظي في تسميته ، فالتقصود إطلاق هذه الاضافات عليه سبحانه ونسبتها اليه والاخبار عنه بها منزهة عن التمثيل والتعطيل ، سواء سميت صفات أو لم تسم

(الفرق الثالث) ان النعوت ما يظهر من الصفات ويشتهر ويعرفه الخاص والعام ، والصفات أعم ، فالفرق بين النعت والصفة فرق ما بين الخاص والعام ، ومنه قولهم في تحلية الشيء : نعته كذا وكذا — لما يظهر من صفاته ، وقيل : هما لغتان لا فرق بينهما . ولهذا يقول نحاة البصرة « باب الصفة » ويقول نحاة الكوفة « باب النعت » والمراد واحد والامر قريب ونحن في غير هذا

فلنرجع الى المقصود وهو انه لا يستقر لعبد قدم في المعرفة بل ولا في الايمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه ، فالايان بالصفات وتعرفها هو أساس الاسلام وقاعدة الايمان وشجرة ثمرة الاحسان ، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الاسلام والايان وثمره شجرة الاحسان ، فضلا عن أن يكون من أهل العرفان ، وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به ، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر فقال تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم

من الخاسرين) فاخبر سبحانه ان إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به ، وأنه هو الذي أهلكهم ، وقد قال في الظانين به ظن السوء (عليهم دائرة السوء) وغضب الله عليهم وانهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا) ولم يجي مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه . وجحد صفاته وانكار حقائق أسائه من أعظم ظن السوء به ولما كان أحب الأشياء اليه حمده ومدحه والثناء عليه باسمائه وصفاته وأفعاله كان انكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به وهو شر من الشرك ، فالمعطل شر من المشرك ، فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والظن في أوصافه هو والتشريك بينه وبين غيره في الملك ، فالمعطلون أعداء الرسل بالذات ، بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل ، فإنه لولا تعطيل كاله أو بعضه وظن السوء به لما أشرك به ، كما قال امام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه (أفكنا آلهة دون الله تريدون؟) فما ظنكم برب العالمين؟) أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره؟ وما (١) الذي ظنتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظنتم انه يحتاج الى الشركاء والاعوان؟ أم ظنتم انه يخفى عليه أحوال عباده حتى يحتاج الى شركاء تعرفه بها كالمملك؟ أم لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس فيحتاج الى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل فيحتاج الى ولي يتكأثر به من القلة ، ويتعزز به من الذلة؟ أم يحتاج الى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً . والمقصود ان التعطيل مبدأ الشرك وأساسه ، فلا تجدد معطلا الا وشركه على حسب تعطيله ، فمستقل ومستكثر

فصل

والرسل من أولهم الى خاتمهم — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — أرسلوا بالدعوة الى الله وبيان الطريق الموصل اليه وبيان حال المدعوين بعد وصولهم اليه ، فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول فعرفوا الرب المدعو اليه باسمائه وصفاته وأفعاله تعريفا مفصلا ، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه

(١) لعل الاصل « أو ما » لأنه وجه آخر في تفسير الآية

وينظرون اليه فوق سماواته على عرشه يكلم ملائكته ويدبر أمر ملكته ، ويسمع أصوات خلقه ويرى أفعالهم وحركاتهم ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم ، يأمر وينهى ، ويرضى ويعضب ، يحب ويسخط ، ويضحك من قنوطهم وقرب غيره ، ويجيب دعوة مضطرم ، ويعيث ملهوفهم ويعين محتاجهم ، ويجبر كبيرهم ، ويعني قهبرهم ، ويميت ويحيي ، ويمنع ويعطي ، ويؤتي الحكمة من يشاء^(١) وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء وينزل من يشاء بيده الخبير وهو على كل شيء قدير ، كل يوم هو في شأن ، يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويفك عانيا ، وينصر مظلوما ، ويقسم ظالما ، ويرحم مسكينا ، ويعيث ملهوفاً ، ويسوق الاقدار الى مواعيتها ، ويجريها على نظامها ، ويقدم ما يشاء تقديمه ، ويؤخر ما يشاء تأخيره ، فأزمة الامور كلها بيده ، ومدار تدبير الممالك كلها عليه . وهذا مقصود الدعوة وزبدة الرسالة

(القاعدة الثانية) تعريفهم بالطريق الموصل اليه ، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه لرسله وأتباعهم ، وهو امثال أمره واجتتاب نهيه والايان بوعده ووعيده

(القاعدة الثالثة) تعريف الحال بعد الوصول ، وهو ما تضمنه اليوم الآخر

من الجنة والنار ، وما قبل ذلك من الحساب والحوض والميزان والصراف
 فعمدت المعطلة والجهمية على رأس القاعدة الاولى فخالوا بين القلوب وبين معرفة ربها ، وسموا اثبات صفاته وعلوه فوق خلقه واستوائه على عرشه — تشبيهاً وتجبهاً وحشوا ، فنفروا عنه صبيان العقول ، وسموا نزوله الى سماء الدنيا ، وتكلمه بمشيئته ، ورضاه بعد غضبه وغضبه بعد رضاه ، وسمعه الحاضر لاصوات العباد ، ورويته المقارنة لافعالهم ونحو ذلك — حوادث ، وسموا وجهه الاعلى وبديه المبتسوطتين وأصابه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة — جوارح وأعضاء ، مكرها منهم كبارا بالناس ، كمن يريد التفجير عن العسل فيمكر في العبارة ويقول : مائع أصفر يشبه العذرة المائعة . أو يفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الاسماء فعل الماكر الخادع ، فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل

فلما تم للمعطلة مكرهم وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بمحقائق الايمان وما جاء

(١) لعله سقط من هنا : ويؤتي الملك من يشاء

به الرسول - ترتب عليه الأعراض عن الله وعن ذكره ومحبته والثناء عليه باوصاف كاله ونموت جلاله ، فانصرفت قوى حبا وشوقها وأنسها إلى سواء وجاء أهل الآراء الفاسدة ، والسياسات الباطلة ، والأذواق المنحرفة ، والعوائد المستمرة ، فقعدها على رأس هذا الصراط وحالوا بين القلوب وبين الوصول إلى نبيها وما كان عليه وأصحابه ، وعابوا من خالفهم في قعودهم عن ذلك ورغب عما اختاروه لانفسهم ، ورموه بما هم أولى به منه كما قيل : رمتني بدائها وانسلت وجاء أصحاب الشهوات المعتنون بها الذين يعدون حصولها كيف كان الظفر في هذه الحياة والبنية فقعدها على رأس طريق المعاد والاستعداد للجنة ولقاء الله ، وقالوا : اليوم خمر ، وضدأ أمر ، اليوم لك ولا تدري غدا لك أو عليك . وقالوا : لا تبيع ذرة منقودة ، بذرة موعودة

خذ ماتراه ودع شياً سمعت به في طلعة الشمس ما يفنيك عن زحل
وقالوا للناس : خلوا لنا الدنيا ونحن قد خلينا لكم الآخرة ، فان طلبتم منا ما بأيدينا أحلناكم على الآخرة

أناس^(١) يُتْقَضُونَ عَيْشَ النِّعَمِ وَنَحْنُ نَحَالُ عَلَى الْآخِرَةِ
فان لم تكن مثلما يزعمون فتلك اذاً حكرة خاسره

فالإيمان بالصفات ومعرفتها وإثبات حقائقها وتعلق القلب بها وشهوده لها هو مبدأ الطريق ووسطه ، وغايته ، وهو روح السالكين ، وحاديهم إلى الوصول ، ومحرك عزائمهم اذا قتروا ، ومثير همهم اذا قصرُوا ، فان سيرهم إنما هو على الشواهد ، فمن كان لا شاهد له فلا سير ولا طلب ولا سلوك له ، وأعظم الشواهد صفات محبوبهم ونهاية مطلوبهم ، وذلك هو العَاقِبَةُ الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه ، كما قالت عائشة رضي الله عنها « من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رآه غادياً رأياً لم يضع لينة على لينة ، ولكن رفع له علم فشمروا إليه » ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل حتى يرفع الله عز وجل له بفضله ومنه علماً يشاهده بقلبه فيشير إليه ويعمل عليه ، فان هطلت شواهد الصفات ووضعت أعلامها عن القلوب ، وطمست آثارها

(١) في ب « أناس » وفي صائر النسخ الناس

وضربت بسياط البعد ، وأسبل دونها حجاب الطرد ، وتخلفت مع المتخلفين ، وأوحى اليها القدر أن اقمدي مع القاعددين ، فان أوصاف المدعو اليه ونعوت كماله وحقائق أسماؤه هي الجاذبة للقلوب الى محبته وطلب الوصول اليه ، لان القلوب انما تحب من تعرفه وتخافه وترجوه وتشتاق اليه وتلتذ بهربه وتطمئن الى ذكره ، بحسب معرفتها بصفاته ، فاذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والاقرار بها ، امتنع منها بعد ذلك ما هو مشروط بالمعرفة وملزوم لها ، اذ وجود المزوم بدون لازمه والمشروط بدون شرطه ممتنع

فحقيقة المحبة والانابة والتوكل ومقام الاحسان ممتنع على المطل امتناع حصول المغل من معطل البذر بل أعظم امتناعا . كيف تصمد القلوب الى من ليس داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا مبايناه ولا محايثا ، بل حظ العرش منه كحظ الآبار والوهاد والاماكن التي يرغب عن ذكرها ؟ وكيف تأله القلوب من لا يسمع كلامها ولا يرى مكانها ولا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ ولا يقوم به فعل البتة ، ولا يتكلم ولا يكلم ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء ولا يقوم به رافة ولا رحمة ولا حنان ، ولاله حكمة ولا غاية يفعل ويأمر لاجلها ؟ فكيف يتصور التوكل على ذلك ، ومحبته والانابة اليه والشوق الى لقائه ورؤية وجهه الكريم في جنان النعيم وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه ؟ أم كيف تأله القلوب من لا يحب ولا يحب ولا يرضى ولا يفضض ولا يفرح ولا يضحك ؟ فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته والسرور والفرح به والشوق الى لقائه وانتظار لذة النظر الى وجهه الكريم والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه ! فلورآها أهلا لذلك لمن عليها به وأكرمها به اذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده ، والله أعلم حيث يجعل كرامته ، ويضع نعمته (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله باعلم بالشاكرين * واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته - أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون) وليس جحودهم صفاته سبحانه وحقائق أسماؤه في الحقيقة تنزيهاً

وأما هو حجاب ضرب عليهم فظنوه تزيها ، كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها وزين لهم سوء أعمالهم فأروها حسنة عدنا الى شرح كلامه . قوله « وقد وردت أسامياها بالرسالة » الى آخره ، ذكر ان اثبات الصفات دل عليها الوحي الذي جاء من عند الله على لسان رسوله ، والحس الذي شاهد به البصير آثار الصنعة فاستدل بها على صفات صانعها ، والعقل الذي طابت حياته بزرع الفكر ، والقلب الذي حيي بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار ؛ فلما الرسالة قائما جاءت باثبات الصفات اثباتا مفصلا على وجه أزال الشبهة وكشف الغطاء وحصل العلم اليقيني ورفع الشك والريب ، فتلججت له الصدور واطمأنت به القلوب ، واستقر به الايمان في نصابه ، ففصلت الرسالة الصفات والنعوت والافعال أعظم من تفصيل الامر والنهي ، وقررت إثباتها أكل تقرير في أبلغ لفظ وأبعده من الاجمال والاحتمال وأمنعه من قبول التأويل ، وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره ، بل أبعده منه لوجوه كثيرة ذكرتها في كتاب [الصواعق المرسله ، على الجهمية والمعطلة] بل تأويل آيات الصفات بما يخرجها عن حقائقها كتأويل آيات الامر والنهي . فالباب كله باب واحد ومصدره واحد ومقصوده واحد ، وهو اثبات حقائقه والايمان بها ولذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم وقالوا : فعلنا فيها كفعل المتكلمين في آيات الصفات ، بل نحن أعذر ، فان اشتمال الكتب الالهية على الصفات والعلو وقيام الافعال أعظم من نصوص المعاد للابدان بكثير ، فاذا ساغ لكم تأويلها فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد ؟ وكذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الامر والنهي وقالوا : فعلنا فيها كفعل أولئك في آيات الصفات مع كثرتها وتنوعها . وآيات الاحكام لا تبلغ زيادة على خمسين آية — قالوا — وما يظن انه معارض من العقليات لنصوص الصفات فعندنا معارض عقلي لنصوص المعاد من جنسه أو أقوى منه ، وقالوا (١) متأولو آيات الاحكام على خلاف حقائقها وظواهرها (٢) التي سوغ لنا (٣)

(١) لعل الاصل « قال » وما يبعده فاعله (٢) وفي ب « فظواهرها » وهو غير ظاهر

(٣) هذا مقول المقول ، وصوابه : الذي سوغ لنا هذا القول القواعد الخ أي هو القواعد

هذا التأويل القواعد التي اصطلمحتموها لنا وجهلتها أصلاً نرجع إليها فلما طردناها كان طردنا ان الله ماتكم بشيء قط ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا له صفة تقوم به ولا يفعل شيئاً ، وطرد هذا الاصل لزوم تأويل آيات الامر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب

وقد ذكرنا في كتاب [الصواعق] ان تأويل آيات الصفات وأخبارها بما يخرجها عن حقائقها هو أصل فساد الدنيا والدين . وزول الممالك وتسلط أعداء الاسلام عليه إنما كانت بسبب التأويل ، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم ، ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته ، لانه سبب افساد العالم وتعطيل الشرائع ، ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات في القرآن والسنة علم قطعاً بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها ، فانها وردت على وجه لا يحتمل معه (١) التأويل بوجه ، فانظر الى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) هل يحتمل هذا التقسيم والتنويع تأويل إتيان الرب جل جلاله بإتيان ملائكته أو آياته ؟ وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلاً أنه إتيانه بنفسه ؟ وكذلك قوله (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده - الى أن قال - وكلم الله موسى تكليماً) ففرق بين الإيحاء العام والتكليم الخاص ، وجعلها نوعين ، ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرفع لتوهم ما يقوله المحرفون ، وكذلك قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فنوع تكليمه الى تكليم بواسطة وتكليم بغير واسطة ، وكذلك قوله لموسى عليه السلام (اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) ففرق بين الرسالة والكلام ، والرسالة إنما هي بكلامه ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم « انكم ترون ربكم عيانا كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو ليس وثة سحاب » وكما ترون الشمس في الظهيرة صحوً ليس دونها سحاب » (٢) ومعلوم ان هذا البيان والكشف والاحتراز

(١) في نوح « منه » (٢) ليس من التأويل ما قالوه في شرح الحديث من أن التشبيه فيه للرؤية لا للمرئي الذي لا يشبهه قمر ولا شمس ولا غيرها (ليس كمثلها شيء) ولا قولهم ان كيفية هذه الرؤية لا تعرف في الدنيا بل ما دونها من أمر الآخرة لا يمكن أن يعرف في الدنيا أيضاً

بما في ارادة التأويل قطعا ولا يرتاب في هذا من له عقل ودين قوله « وظهرت شواهدا في الصنعة » هذا هو الطريق الثاني من طرق اثبات الصفات ، وهو دلالة الصنعة عليها ، فان المخلوق يدل على وجود خالقه وعلى حياته وعلى قدرته وعلى علمه ومشيتته ، فان الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاما ضروريا . وما فيه من الاتقان والاحكام ووقوعه على أكل الوجوه ما يدل ^(١) على حكمة فاعله وعنايته ، وما فيه من الاحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة الى المخلوق - يدل على رحمة خالقه واحسانه وجوده ، وما فيه من آثار الكمال يدل على ان خالقه أكمل منه . فمعطي الكمال أحق بالكمال ، وخالق الاسماع والابصار والنطق أحق بان يكون سميعا بصيرا متكلما ، وخالق الحياة والعلوم والقدر والارادات أحق بان يكون هو كذلك في نفسه ، فما في المخلوقات شيء ^(٢) من أنواع التخصيصات من أدل شيء ^(٣) على ارادة الرب سبحانه ومشيتته وحكمته التي اقتضت التخصيص ، وحصول الاجابة عقيب سؤال المطلوب على الوجه المطلوب دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات وعلى سمعه لسؤال عبده وعلى قدرته على قضاء حوائجهم وعلى رأفته ورحمته بهم ، والاحسان الى المطيعين والتقرب اليهم والاكرام واعلاء درجاتهم - يدل على محبته ورضاه ، وعقوبته للعصاة والنائمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل على صفة الغضب والسخط والابادة والطرده والإقصاء يدل على المقت والبنص ، فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل ، ولهذا دعا سبحانه في كتابه عباده الى الاستدلال بذلك على صفاته ، فهو يثبت العلم برؤيته ووجدانيته ، وصفات كماله بآثار صنعته المشهودة والقرآن مملوء بذلك ، فيظهر شاهد اسم الخالق من نفس المخلوق ، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق والمرزوق ، وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة في العالم ، واسم المعطي من وجود العطاء الذي هو مدارر لا ينقطع لحظة واحدة ، واسم الخليم من حلمه عن الجناة والعصاة وعدم معاجلتهم ، واسم الغفور والتواب من مفضرة الذنوب وقبول التوبة ، ويظهر شاهد اسم الحكيم من العلم بما في خلقه وأمره

(١) « ما » زائدة إما هنا وإما في أول الجملة (٢) لعل كلمة شيء زائدة

(٣) لعل الاصل : أدل شيء - أو - من أدل الاشياء

من الحكم والمصالح ووجوه المنافع، وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنی له شاهد في خلقه وأمره يعرفه من عرفه ويجهله من جهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته، وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعه، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوي والسفلي وهذه المخلوقات من بعض صنعه وإذا اعتبرت المخلوقات والأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة على النعوت والصفات وحقائق الاسماء الحسنی، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عي بمكابرة، ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة كما قال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فالوجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه، فهي كلها تشير الى الاسماء الحسنی وحقائقها وتنادي عليها وتدل عليها وتخبر بها بلسان النطق والحال كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فانها من الملك الأعلى اليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بأثبات الصفات لربها فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلمست ترى شيئاً أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فهي تدل عقلاً وحملاً وفطرة ونظراً واعتباراً (١)

قوله « بتبصير النور القائم في السر » يعني ان النور الالهي الذي جعله الله لعبده ويلقيه اليه ويودعه في سره هو الذي يبصره بشواهد صفاته، فكما قوي هذا النور في قلب العبد كان بصره بالصفات أتم وأكمل، وكما قل نصيبه من هذا النور وطفئ مصباحه في قلبه طفي نور التصديق بالصفات واثمها في قلبه، فانه إنما يشاهدها بذلك النور، فاذا فقدته لم يشاهدها وجاءت الشبه الباطلة مع تلك الظلمة فلم يكن له نصيب منها سوى الانكار

(١) هذه الجملة من قوله « من دلالة المخلوقات » الى هنا سقطت من نوح

قوله « وطيب حياة العقل لزرع الفكر » أي يدرك الصفات بذلك النور القائم في سره وطيب حياة عقله التي طيبها زرع الفكر الصحيح المتعلق بما دعا الله سبحانه عباده الى الفكر فيه بقوله (ويتفكرون في خلق السماوات والارض - وقوله - أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق - وقوله - كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) (١) فيتفكرون في الآيات التي بينها لهم فيستدلون بها على توحيد صفات كماله وصدق رسله والعلم بخلقاته ، ويتفكرون في الدنيا وانقضائها واضمحلالها وآفاتنا ، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها ، وقوله (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فالفكر الصحيح المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة يدل على اثبات صفات الكمال ونعوت الجلال ، وأما فكر مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة فأنما يعطي صاحبه نقيها وتعطيلها

قوله « وحياة القلب بحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار » يعني انه يضاف الى نور البصيرة وطيب حياة العقل حياة القلب بحسن النظر الدائر بين تعظيم الخالق جل جلاله وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه ، فلا بد من الامرين فانه ان غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار لم يحصل له الاستدلال على الصفات ، وان حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبجانه لم يستفد به اثبات الصفات ، فاذا اجتمع له تعظيم الخالق وحسن النظر في صنعه أمرا له اثبات صفات كماله ولا بد ، والاعتبار هو أن يعبر نظره من الأثر الى المؤثر ومن الصنعة الى الصانع ومن الدليل الى المدلول ، فينتقل اليه بسرعة لطف ادراك ، فينتقل ذهنه من الملزم الى لازمه ، قال الله تعالى (فاعتبروا يا أولي الابصار) والاعتبار افتعال من العبور وهو عبور القلب من الملزم الى لازمه ومن النظر الى نظيره ، وهذا الاعتبار يضعف ويقوى حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله لحسن اعتباره وصحة نظره ، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم ، فاتهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، وانه يفعل كذا ولا يفعل كذا ، فيفعل ما هو مرجح حكمته وعلمه وغناه وحمده ، ولا يفعل

(١) كذلك حذف هذه الآيات منها فنقلت من ب

ما يناقض ذلك ؛ وقد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه فقال تعالى في الطريق الاول (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق — ثم قال في الطريق الثانية^(١) — أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته ، وأسمائه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به وما لا يفعل ولا يأمر به مثال ذلك ان اسمه الحميد — سبحانه — يدل على انه لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، واسمه الحكيم يدل على انه لا يخلق شيئا عبثا ، واسمه الغني يدل على انه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، واسمه الملك يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه من قدرته وتديره وعطائه ومنعه ونوابه وعقابه ، وبث رسله في اقطار مملكته ، وإعلام عبيده بمراسمه وعهوده اليهم ، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد ؛ فنتى قام بالعبد تعظيم الحق جل جلاله وحسن النظر في الشواهد والتبصر والاعتبار بها صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبله له

قوله « وهي معرفة العامة التي لا تنمقد شرائط اليقين الا بها » لا يريد بالعامية الجهال الذين هم عوام الناس ، وإنما يريد ان هذه هي المعرفة التي وقف عندها الصوم ولم يتعدوها ، وأما معرفة أهل الذوق والمحبة الخاصة فأخص من هذا كما سيأتي قوله « وهي على ثلاثة أركان اثبات الصفة من غير تشبيه » الى آخره — هذه ثلاثة أشياء

(أحدها) اثبات تلك الصفة فلا يعاملها بالنفي والانكار

(الثاني) انه لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة فلا يعطل الصفة ولا يغير اسمها ويعبرها اسما آخر ، كما تسمى الجهمية والمعطلة سمعه وبصره وقدرته وحياته وكلامه أعراضا ، ويسمون وجهه ويديه وقدمه سبحانه جوارح وأبعاضا ، ويسمون حكمته وغاية فعله المطاوعة عللا وأعراضا ، ويسمون أفعاله القائمة به حوادث ، ويسمون علوه على خلقه واستوائه على عرشه تميزا ، ويتوصلون بهذا المكر الكبار الى نفي ما دل عليه البرحي والعقل والفضرة وآثار الصنعة من صفاته ، فيسطون بهذه الاسماء التي سموها هم وإباؤهم على نفي صفاته وحقائق أسمائه

(١) الطريق يذكر ويؤنث وما أرى التانيث هنا والتذكير قبله الا لمن النساخ

(الثالث) عدم تشبيهها بما للمخلوق ، فان الله سبحانه ليس كمثل شيء لاني ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فالعارفون به المصدقون لرسوله المقرون بكلامه يثبتون له الأسماء والصفات ، وينفون عنه مشابهة المخلوقات ، فيجمعون بين الاثبات ونفي التشبيه ، وبين التنزيه وعدم التمثيل ، فذهبهم حسنة بين سئمتين ، وهدي بين ضلالتين ، فصرطهم صراط المنعم عليهم ، وصرط غيرهم صراط المفضوب عليهم والضالين ، قال الامام أحمد رحمه الله : لانزيل عن الله صفة من صفاته لاجل شناعة المشنعين - وقال - التشبيه أن تقول : يد كيدي . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قوله « والإيأس من ادراكها وابتغاء تأويلها » يعني ان العقل قد يتأس من تعرفه كنه الصفة وكيفيتها فانه لا يعلم كيف الله الا الله ، وهذا معنى قول السلف ، [بلا كيف] أي بلا كيف يعقله البشر ، فان من لا يعلم حقيقة ذاته وماهيته كيف يعرف كيفية نعوته وصفاته ؟ ولا يقدر ذلك في الايمان بها ومعرفة معانيها ، فالكيفية وراء ذلك ، كما انا نعرف معاني ما أخبر الله به من حقائق ما في اليوم الآخر ولا نعرف حقيقة كيفية مع قرب ما بين المخلوق والمخلوق ، فمعجزنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم ، فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة كيفية من له الكمال كله والجمال كله والعلم كله والقدرة كلها والعظمة كلها والكبرياء كلها ، من لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته السموات والارض وما فيهما وما يفهما وما وراء ذلك ، الذي يقبض سمواته بيده فتضيب كما تضيب الخردلة في كف أحدنا ، الذي نسبة علوم الخلائق كلها الى علمه أقل من نسبة نقرة عصفور من بحار العالم ، الذي لو أن البحر يمد من بعده سبعة أبحر مداد ، وأشجار الارض من حين خلقت الى قيام الساعة أقلام ، في المداد وفنيت الأقلام ولم تنفذ كلماته ، الذي لو أن الخلق من أول الدنيا الى آخرها إنسهم وجنهم وناطقهم وأعجمهم جعلوا صفا واحدا ما أحاطوا به سبحانه ، الذي يضع السموات على اصبع من أصابعه والارض على اصبع والجبال على اصبع والأشجار على اصبع ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك . فقاتل الله الجهمية والمطلة ! أين التشبيه هاهنا وأين التمثيل ؟ لقد اضمحل هاهنا كل موجود سواه فضلا عن أن يكون له ما يماثله في ذلك الكمال ويشابهه فيه .

فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته وولائها ما نولات من وقوفها مع الالفاظ التي لا حرمة لها والمعاني التي لاحقائق لها ، ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الالهية ما تفهمه من صفات المخلوقين فرت الى انكار حقائقها وابتغاء تحريفها وسمته تأويلاً ، فشبهت أولاً وعطلت ثانياً ، وأساءت الظن بربها وبكتابه وبنبيه وبأتباعه ، أما إساءة الظن بالرب فانها عطلت صفات كماله ونسبته الى انه أنزل كتاباً مشتملاً على ما ظاهره كفر وباطل ، وان ظاهره وحقائمه غير مرادة ، وأما إساءة ظننا بالرسول فلانه تكلم بذلك وقرره وأكده ولم يبين للامة ان الحق في خلافه وتأويله ، وأما إساءة ظننا بأتباعه فنسبناهم لهم الى التشبيه والتمثيل والجهل والحشو ، وهم عند أتباعه أجهل من أن يكفروهم الا من عاند الرسول وقصد نفي ما جاء به . والتوم عندهم في خفارة جهلهم قد حجبت قلوبهم عن معرفة الله وإثبات حقائق أسمائه وأوصاف كماله (له بقية)

تقرير المطبوعات الجديدة*)

الحلق — مباحث علمية في النفس والعقل وقواها وكنه الاخلاق والموامل المعيرة لها وتأثير العقل والبيئة والوراثة فيها . وماهية الفضيلة وتنوع درجاتها في أدوار الحياة وأنواعها وحدودها ، والرذيلة ونشأتها وأقسامها ودرتها

تأليف حسن افندي فتوح بنظارة (وزارة) المعارف ، طبع بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٠ طبعاً نظيفاً على ورق متوسط بحرف بنط ٢٤ صفحاته ١٤٤ بالقطع الصغير وثمانه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

عظة الناشئين — كتاب أخلاق وآداب واجتماع . تأليف الشيخ مصطفى الغلايبي أستاذ اللغة العربية في المدرسة السلطانية في بيروت ، طبع بمطبعة الثبات في بيروت سنة ١٣٣٠ صفحاته ٦٦ بالقطع الصغير

ومن مباحثه : الاقدام — الصبر — الاخلاص — الشجاعة ، الشرف — الهجعة واليقظة ، الثورة الادبية ، الامة والحكومة ، الفرور ، التجدد — الدين ، المدنية ، الحرية — الزعامة والرئاسة — السعادة ، القيام بالواجب ، الثقة — التعاون — التعصب ، ورتاء الارض الخ

(*) عهدنا بتقرير المطبوعات الى شقيقنا السيد صالح مخلص رضا